

القَصَصُ الدِّينِيُّ  
الحلقة الرابعة  
العرب في أوربا

# الأميرة صَبَح

عبد الحميد جودة السحار

١٨



كانت السَّيِّدَةُ صُبْح ، من نِساء البشْكَنَس ، تلك  
الْمِنْطَقَةُ الرَّاقِعَةُ فِي شَمَالِ أُسْبَانِيَا ، بِالْقُرْبِ مِنْ جِبَالِ  
الْبِيرَانِيَّة ؛ وَقَدْ وَقَعَتْ فِي السَّبْيِ ، يَوْمَ غَزَا الْعَرَبُ  
تِلْكَ الْمِنْطَقَةَ وَاجْتَاخُوهَا ، وَلَمَّا كَانَتْ شَابَةً رَائِعَةً  
الْجَمَالَ ، حُمِلَتْ إِلَى قَصْرِ الْحَكَمِ بِقُرْطُبَةٍ . وَفِي  
ذَاتِ يَوْمٍ ، بَيْنَمَا الْحَكَمُ يَجُولُ فِي قَصْرِ الزَّهْرَاءِ ، إِذْ  
مَسَّ أُذُنِيهِ صَوْتُهَا الْآسِرَ ؛ فَاِنْطَلَقَ إِلَيْهَا ؛ وَجَلَسَ  
يُصْغِي إِلَى النَّغَمِ الْحُلُوِّ الْمَطْرَبِ ؛ وَمَا غَاذَرَهَا حَتَّى  
تَرَكْتَ فِي نَفْسِهِ أَثْرًا طَيِّبًا . فَكَانَ كُلَّمَا تَعَبَ مِنْ  
أُمُورِ مُلْكِهِ ، هُرِعَ إِلَيْهَا ، لِيَجِدَ عِنْدَهَا الرَّاحَةَ وَالِدَّعَةَ  
وَالسَّلَامَ .

وَوَضَعَتْ لَهُ وَلَدًا ، فَارْتَفَعَتْ مَكَانَتُهَا عِنْدَهُ ،  
وَصَارَتْ أَمِيرَةً لِقُرْطُبَةٍ . وَلَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ غَضَاظَةً ،

فقد كثر زواجُ الأمراءِ والعُظماءِ ، بل عامَّةِ  
الشَّعبِ ، من أسبانيَّاتٍ ، بل كان الدَّمُ الأسبانيُّ  
يجرى في عُرُوقه ، فقد تزوَّجَ جدُّه بماريَّةِ الأسبانيَّةِ ،  
ورزقَ منها وإلده العَظيم ، عبد الرَّحمنِ النَّاصرِ ،  
الذى كان أعظمَ ملوكِ الأندلسِ بلا مراء .

واشتركتْ صُبْحُ في إدارةِ شُؤونِ البلادِ ، فكانت  
تُجمَعُ كلَّ يَوْمٍ بالمُصحِّفِ ، رئيسِ الوُزراءِ ، تُصدِرُ  
الأوامِرَ ، وتُشرفُ على تحريرِ الكُتُبِ إلى العُمَـالِ  
والقُـوَّادِ والقُضاةِ . وفُطِنَ الحُكْمُ إلى ما تبذله صُبْحُ من  
جهدٍ في تصريفِ أمورِ الدَّولةِ ، فأمرَ بأنْ يُعلنَ القَصرُ  
عن حاجتِه إلى كاتبٍ للأميرةِ ، يُعاونُها في عملِها .

تعلَّم محمدُ بنُ أبي عامرٍ في جامعةِ قرطبةِ ، ولما أتمَّ  
دِراسَتَه ، فتحَ حانوتًا تُجاهَ القَصرِ ، يُحرِّرُ للنَّاسِ



شكواهم ، ويُنمِّقُ لهم مظالمهم . وفي ذاتِ يومٍ ؛ وقد  
إليه بعضُ صحابه من طُلابِ جامعةِ قرطبة ، فخرجَ  
معهم إلى مُتنزهٍ من المُتنزهات ، وشرَدَ خياله ، فسأله أحدُ  
أصحابه عما يشغلُ باله ، فقال ابنُ أبي عامر :

— سأكونُ حاكمَ هذه الدَّولةِ يومًا ما ؛ تَمَنُّوا  
عليّ ، وليخترَ كلُّ واحدٍ منكمُ خُطَّةً ، أوليهِ إيَّاها إذا  
أُفضِيَ إلى الأمرِ .

فقال أحدهم :

— أتمنى أن تُولِّني القضاءَ بجهتي كورةِ ريَّة ، فإنَّه  
يُعجبُنِي هذا التِّينُ الذي يجيئُ منها ، وأحبُّ أن  
أشتقِّي من أكلِهِ .

وقال ابنُ عسقلانِ ، وكان ابنُ عمِّه :

— إنِّي أوثِرُ قرطبةَ ذاتِ القُصورِ العجيبة ،  
والمساجدِ الفخمة ، زينةَ المُدن ، وعُروسَ البلاد ،  
وأقصى ما أتمناه أن أكونَ حاكمًا لها .

وقال صديقه الثالث :

- أتمنى إذا أفضى إليك الأمر ، أن يُطافَ بى قُرْطُبَةً  
كلَّها على حِمَار ، ووجهى إلى الذَّنْب ، وأنا مَطْلَى  
بالْعَسَل ؛ ليجتمع الذُّبابُ على والنَّحل ، وليكن هذا  
أَوَّلَ ما تستفتحُ به عهدك ، إذا حكمت الأندلس .  
وأسرَّها ابنُ أبى عامر فى نفسه .

٣

وفدَ إلى قصرِ الزَّهراءِ كثيرٌ من كُتَّابِ الأندلس ،  
ليختارَ الخليفةُ من بينهم كاتبًا للأميرة ، وتقدَّم محمدُ  
ابنُ أبى عامر ، وهو يرجو أن ينالَ الوظيفة ؛ إنَّه إذا  
دخلَ القصرَ ، عرفَ كيفَ يُحقِّقُ أطماعه الواسعةَ  
العريضة .

وأذنَ لابنِ أبى عامر بالدُّخول ، فسارَ واجِفَ  
القلب . ورأى الحكمَ فى صدرِ القاعة ، وإلى يمينه



جَعْفَرُ الْمُصْحَفِيُّ حَاجِبُ الدَّوْلَةِ ، فَانْحَنَى حَتَّى كَادَتْ  
جَبْهَتُهُ تَلْمُسُ الْأَرْضَ ، ثُمَّ اعْتَدَلَ وَوَقَفَ بَعِيدًا . ثُمَّ  
أَشِيرَ إِلَيْهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ ، فَتَقَدَّمَ فِي ثِقَةٍ ، وَجَلَسَ أَمَامَ  
الْخَلِيفَةِ وَحَاجِبِهِ .

وَوَقَعَ اخْتِيَارُ الْخَلِيفَةِ عَلَى ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ؛ وَجَاءَتْ  
السَّيِّدَةُ صُبْحُ ، فَأَقَرَّتْ اخْتِيَارَ الْخَلِيفَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ  
شَخْصِيَّةَ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ قَوِيَّةَ آسِرَةٍ ، تَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا  
النُّفُوسُ ، وَتَنْجَذِبُ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ .

وَأَصْبَحَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ كَاتِبَ الْأَمِيرَةِ ، فَرَاخَتْ  
صُبْحُ ، وَالْمُصْحَفِيُّ حَاجِبُ الدَّوْلَةِ ، وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ  
كَاتِبُهَا ، يَجْتَمِعُونَ كُلَّ يَوْمٍ فِي جَنَاحِ الْأَمِيرَةِ . كَانَتْ  
صُبْحُ وَحَاجِبُ الدَّوْلَةِ يَتَدَارَسَانِ فِي شُؤُونِ الْمَلِكِ ،  
وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ يَنْتَظِرُ أَوْامِرَ الْأَمِيرَةِ ، لِيُحَرِّرَ كُتُبَهَا إِلَى  
الْعُمَّالِ وَالْقَوَادِ وَالْقُضَاةِ .

وراحتْ صُبْحُ تَرَعَاهُ ، أَمَّا الْمُصْحَفِيُّ فَمَا كَانَ  
يَهْتَمُّ بِذَلِكَ الشَّابِّ الْأَلْمَعِيِّ ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ  
نَظَرَتَهُ إِلَى خَادِمٍ عَادِيٍّ ، مِنْ خُدَّامِ الْقَصْرِ . وَكَانَ  
يُعَامِلُهُ أحيانًا فِي غِلْظَةٍ ، وَقَدْ أَوْغَرَ صَدْرَ الشَّابِّ  
عَلَى الْمُصْحَفِيِّ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا ذَهَبَ إِلَى دَارِهِ لِعَمَلٍ  
مِنَ الْأَعْمَالِ ، يَتْرُكُهُ فِي دِهْلِيزِ بَيْتِهِ السَّاعَاتِ ؛  
فَكَانَ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي حَقْدِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ عَلَى  
الْحَاجِبِ الْبَرَبَرِيِّ ، الَّذِي عَاوَنَهُ حُظُّهُ لِيَكُونَ رَئِيسًا  
لِلوُزَرَاءِ ، يَتَحَكَّمُ فِي أَقْدَارِ النَّاسِ .

٤

ارْتَفَعَ قَدْرُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي الْقَصْرِ ، بِفَضْلِ رِعَايَةِ  
الْأَمِيرَةِ ، فَأَصْبَحَ مُنَافِسًا خَطِيرًا لَوْلَدَى الْمُصْحَفِيِّ :  
مُحَمَّدٍ وَعُثْمَانَ . وَرَاحَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ يَتَوَدَّدُ إِلَى كُلِّ مَنْ  
فِي الْقَصْرِ . وَرَأَى أَنَّ الْخَصِيِّينَ : فَائِقًا وَجُوذْرًا ،



الَّذِينَ يَحْكُمَانِ عَلَى آلَافِ مَمْلُوكٍ مِنَ الصَّقَالِبَةِ مِمَّنْ  
يَعْمَلُونَ بِالْقَصْرِ ، يَكْرَهُانِ الْمُصْحَفِيَّ ، فَأَرَادَ أَنْ  
يَكْسِبَهُمَا إِلَى جَانِبِهِ ، فَرَاخَ يُلَاطِفُهُمَا وَيُغْرِقُهُمَا  
بِالْهَدَايَا .

وَرَاخَ الْحَكَمُ يَرْقُبُ الشَّابَّ وَهُوَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ  
أَمْرِهِ ، وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ حَيْرَتِهِ بِقَوْلِهِ لِلْمُصْحَفِيِّ :  
— وَاللَّهِ لَا أَدْرِي يَا جَعْفَرُ أَعْدُهُ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لَنَا ،  
أَمْ أَعْدُهُ سَاحِرًا مُحْتَالًا ؟

فَلَمْ يَنْبَسِ الْمُصْحَفِيُّ بِكَلِمَةٍ ، خَشِيَ أَنْ يَفْضَحَ  
نَفْسَهُ ، وَيُعْلِنَ عَنْ بُغْضِهِ لِلشَّابِّ ، فَلَا يَكْسِبُ مِنْ  
ذَلِكَ إِلَّا عَدَاوَةَ الْأَمِيرَةِ .

وَرَاخَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ ، بِفَضْلِ رِعَايَةِ الْأَمِيرَةِ ، يَرْقَى  
سُلَّمِ الْمَجْدِ سَرِيعًا . فَصَارَ نَازِلًا خَزِينَةَ الدَّوْلَةِ ، ثُمَّ  
عَيْنَ النَّظَرِ فِي أَمَانَةِ دَارِ السَّكَّةِ ، وَصَارَ صَدِيقًا حَمِيمًا  
لِلْوُزَرَاءِ . وَفَكَرَ فِي أَنْ يُهْدِيَ إِلَى الْأَمِيرَةِ هَدِيَّةً



جليلة ، اعترافاً بفضليها ، فجلبَ أمهرَ الصُّناع ،  
وعهدَ إليهم بصنعِ تحفةٍ فريدة ، تفوقُ روائعَ قصرِ  
الزَّهراء . فراحوا يصنعون من الفضة نموذجاً  
صغيراً ، لقصر من قصور الأندلس الرائعة ، فأبدعوا  
ما شاءَ لهم الإبداع ، فجاءَ النموذجُ آيةً من آياتِ  
الفنِّ والجمال .

وحملت الهدية النفيسة من دارِ ابنِ أبي عامر إلى  
قصر الزَّهراء ، فاصطفَّ النَّاسُ على جانبي الطريق  
لرؤية التحفة النادرة المثال .

٥

أصابَ الحكمَ فالج ، فلزمَ فراشه ، فراحتْ صُبْحُ  
تُفَكِّرُ في حالِها إذا ماتَ زوجها ، فرأت أنَّ عليها أن  
تغادرَ قصرَ الزَّهراء ، للخليفة الجديد ، بعد أن

اعتادت أن تجمع في يدها السلطان . فعزمت على أن تُغري الحكم بنقل الخلافة إلى ابنها هشام . فإذا قبل ، كان معنى ذلك إبقاء نفوذها ، وإدارة شؤون الأندلس من وراء ستار .

ودخلت على الخليفة وهو مُمدّد في فراشه ، وراحت تُواسيه ، فقال لها فيما قال :

- إن ما تكهن به ذلك الكاهن يروى في أذني آناء الليل وأطراف النهار . إن صوته يهتف بي ، ويصيح دواماً : « لا يزال ملك بني أمية بالأندلس في إقبال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء ؛ فإذا انتقل إلى الإخوة ، وتوارثوه فيما بينهم ، أدبر وانصرم » .

ورأت صبح الفرصة سانحة ، لتلمس من زوجها نقل الخلافة إلى ابنها الذي لم يبلغ الحلم ، فقالت :

- خذ البيعة لابنك هشام .

- سيحجم الشعب عن مبايعته ، وسيقاوم أخى المغيرة تلك البيعة .



وظَلَّتْ تُحَسِّنُ لَهُ نَقْلَ الْخِلَافَةِ إِلَى ابْنِهِ ، حَتَّى  
لَا يَزُولَ مُلْكُ بَنِي أُمَيَّةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، كَمَا زَالَ مِنَ  
الشَّرْقِ ، حَتَّى قَبْلَ نَقْلِ الْخِلَافَةِ إِلَى هِشَامٍ .  
وَلَمْ تَنْسَ صُبْحُ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ ،  
فَقَالَتْ :

- لَوْ كَانَ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ مِنْ خُلَصَائِنَا الْأَوْفِيَاءِ ،  
لَأَمِنَّا سُلُوكَ النَّاسِ . مَاذَا يَا مَوْلَايَ لَوْ جَعَلْنَا ابْنَ أَبِي  
عَامِرٍ صَاحِبَ الشُّرْطَةِ فِي الْبِلَادِ ؟  
وَوَافَقَ الْحَكَمَ ، وَصَارَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ صَاحِبَ  
الشُّرْطَةِ .

وَرَأَتْ الدَّسَائِسُ تُحَاكُّ فِي قَصْرِ الزَّهْرَاءِ ، فَأَخَذَ  
فَائِقٌ وَجُودَرٌ يُفَكِّرَانِ فِيمَا يَفْعَلَانِهِ إِذَا مَاتَ الْحَكَمُ .

كانا صاحِبَي نَفوذٍ في القصر ، فتحتَ أيديهما أَلْفٌ  
من الصَّقَالِيَةِ العبيد ، الذين لا يعصُونَ لهما أمرا ؛  
وكانا يَمِقتانِ المصحفَيَّ ، لِصَلَفِهِ وبُخْلِهِ الشَّدِيدِ ، وقد  
استمالَهما المَغِيرَةُ أخو الحَكم بهداياه ، فأصبحَ لهما  
الضِّياعُ الواسعة . فرأيا أن يُناديا بالمَغِيرَةِ خليفةً على  
الأندلس ، بعدَ موتِ الحَكم ، لأنَّهُما إذا فعلا  
ذلك ، كان لهما الفضلُ على الخليفة ، فيمكُنَ لهما  
في الدَّولة ، ويقوى نفوذُهما . وفي توليةِ المَغِيرَةِ  
قضاءً على المصحفَيَّ ، الذي يَمِقتانه أشدَّ المقت .

وتَدَفَّقَ وجوهُ القومِ وأعيانُ الدَّولةِ على الحَكمِ  
الرَّاقِدِ في فراشه ، ووقَفَ بالقربِ من فراشِ  
الخليفةِ المريضِ : المصحفَيُّ حاجِبُ الدَّولة ، وخلفه  
ابنُ أبي عامرٍ وكيلُ هِشامِ وليِّ العهد ، ووقفتُ صُبْحُ  
خلفِ سِتار ، ترصدُ ما يجري في مكانِ الاجتماعِ ؛  
فما جاء هؤلاءُ جميعا إلَّا بتدبيرِها ، ليُبايعوا ابنَها  
هشامًا خليفةً ، بعدَ موتِ أبيه .



وتمت البيعة ، ولم تنسَ صُبحُ ابنِ أبي عامر ، فقد صارَ المُفتشَ العامَّ للقصر .

٧

وماتَ الحَكم ، فقالت صَبحُ لفائق وجُودر :  
- ينبغي ألاَّ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِموتِ الخليفة .  
وفطنا إلى أَنَّها تُدَبِّرُ أمرَ المُناداةِ بابنِها خليفةً على  
الأندلس ، قبلَ أن تُعلِنَ خبرَ وفاةِ أبيه ، فغادراها ،  
والتفتَ جُودرٌ إلى فائق ، وقال :  
- ينبغي أن نُحضِرَ جَعْفَرَ بنَ عُثمانَ المصحفي ،  
ونضربَ عُنُقَه ، فبذلكَ يتمُّ أمرُنا .  
- لعلَّه لا يُخالفنا فيما نريدُه .  
ولما المصحفيُّ مُقبلاً ، فأسرعا إليه ، وقالوا :

— مات مولانا الساعة ، وإن هِشامًا لا زال غلامًا ، وقد رأينا أن نُقلدَ الخِلافةَ أميرًا أكبرَ منه سنًا ، وأنضجَ تجربةً ، وقد وقعَ اختيارُنا على المغيرة . رأى المصحفِيُّ من الحِكمةِ أن يُسائرَهما ، فقال :  
— هذا هو الرأى ، والأمرُ أمرُكما ، وأنا وغيرى فيه تبعٌ لكما ، فاعزِما على ما أردتما ، وأنا أسيرُ إلى الباب ، فأضبطه بنفسى ، وأنفذُ أمركما إلى بما شئتما .

وخفَّ ابنُ أبى عامرٍ إلى حيث كانتِ الأميرة ، وانطلقا فى القصرِ حتَّى وجدا المصحفِي ، فقال لهما :  
— لقد نكثَ الصَّقَالِبَةُ بَيْعةَ هِشام ، وإنَّ فائقًا وجوذرًا يُريدان أن يُقلدَا الخِلافةَ المغيرة .

فقالت السَّيدةُ صُبْح :

— ينبغى قتل المغيرة ، قبل أن يبلغه موتُ أخيه .  
وبعثت صبحُ ابنَ أبى عامرٍ فى مائةِ غلامٍ من



غِلْمَانِ الْحَكَمِ إِلَى الْمُغِيرَةِ ، فَدَخَلَ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَيْهِ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ أَخِيهِ ، وَبِنَقْضِ الصَّقَالِبَةِ بَيْعَتَهُمْ ، وَفَطَنَ الْمُغِيرَةَ إِلَى أَنَّ ابْنَ أَبِي عَامِرٍ مَا جَاءَ إِلَّا لِقَتْلِهِ ، فَقَالَ :

- إِنِّي سَامِعٌ مُطِيعٌ ، مَوْفٍ بِيَعَتِي ، فَتَوَثَّقُوا مِنِّي كَيْفَ شِئْتُمْ ، لَنْ تَجْنُوا شَيْئًا إِذَا أَهْرَقْتُمْ دَمِي ..

أَنَاشِدُكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ فِي دَمِي ، وَأَلْتَمِسُ مِنْكَ أَنْ تَرَا جِعَهُمْ فِي أَمْرِي ، فَمَا أَظْهَرْتَ خِلَافًا ، وَلَا شَقَقْتَ عَصَا الْجَمَاعَةِ . إِنِّي سَامِعٌ مُطِيعٌ .  
وَأَثَرَ تَوَسَّلُ الْأَمِيرِ فِي نَفْسِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ ، فَقَالَ لَهُ :

- سَأَرَا جِعَهُمْ فِي أَمْرِكَ .  
وَرَا حَ يَكْتُبُ إِلَى الْأَمِيرَةِ وَالْمُصْحَفِيِّ ، يَصِفُ لَهَا جُنُوحَ الْمُغِيرَةِ إِلَى الْمُسَالَمَةِ ، وَيَسْأَلُهُمَا الرَّأْيَ . فَلَمْ